ا ـ حول نظرية ضعف الشعر في صدر الاسلام :

تعتبر هذه النظرية من النتائج التي ترتبت عن الموقف المعادي الذي يزعم اصحابها أن الاسلام وقفه من الشعر ، وقد اخذ بها باحثون محدثون استدلوا على صحتها بنصوص قديمة تنسب الى الاصمعي وابن سلام وابن خلدون ، وفي هذا الصدد يروون للاصمعي قوله :

« طريق الشعر اذا ادخلته في باب الخير لآن، الا ترى ان حسان بن ثابت كان علا في الجاهلية والاسلام ، فلما دخل شعره في باب الخير من مراثي النبي (ص) وحمزة وجعفر رضوان الله عليهما وغيرهم ـ لان شعره ، وطريق الشعر هو طريق شعر الفحول مثل امرئ القيس وزهير والنابغة من صفات الديار والرحل ، والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الحمر والخيل والحروب والافتخار ، فاذا ادخلته في باب الخير لآنَ » (90) واعتمدوا كذلك على نص ابن سلام :« فجاء الاسلام ، فتشاغلت عنه (يقصد الشعر) العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزوا فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الاسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالامصار ، راجعوا رواية الشعر فلم يؤولوا الى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا اقل ذلك وذهب عليهم منه كثير » (91)

وقد فسر أحد الذين يتبنون هذه النظرية نص ابن سلام كما يلي :

« وحديث ابن سلام واضح لايحتاج الى تبيان ، وهو على وضوحه يتناول فكرتين لافكرة واحدة فهو اولا يعلل لانشغال العرب عن الشعر بمقتضيات الجهاد ونشر الدعوة وأعباء الفتوح ويعمم هذا الانشغال على الشعر وروايته ، اي على نظم الشعر من ناحية وروايته من ناحية اخرى فهو في هذا الجانب لم يقصر حديثه

(90) الموشح 85

(91) طبقات ابن سلام 25/1 .

على الرواية بحيث يظن ان العرب ، ان انشغلوا عن رواية الشعر فلم ينشغلوا عن ابداعه، بل ان استغراقهم في ترسيخ دعائم الدين الجديد قد صرفهم عن النظم والرواية جميعا.

ثم هو ثانيا ـ يتخذ من هذا التشاغل تفسيرا لقلة ما وصلنا من الشعر العربي القديم، فقد كان هذا الشعر يعتمد على نقله على الرواية والمشافهة وقد هلك في الغزوات ومسيرات الفتح من رواته وحفظته كثيرون ، ومن ثم ذهب جله ولم يبق من رواته وحفظته كثيرون ، ومن ثم ذهب جله ولم يبق الا أقله »(92)

ونص ابن سلام ـ كما هو واضح لايشير من بعيد ولا من قريب الى مسؤولية الاسلام عن ضعف الشعر وقلته، وانما يقتصر على تقرير مجموعة حقائق تاريخية هي انشغال العرب في العصرين النبوي والراشدي عن الشعر وروايته بالجهاد والفتوح، وعدم تمكنهم من التدوين واكتفاؤهم بحفظ بعض الاشعار ، وقد اقتفى ابن خلدون اثر ابن سلام وأضاف الى ماذكره صاحب (طبقات فحول الشعراء) رأيا جديدا يعلل به حالة الشعر اذ ذاك وهو انبهار المسلمين بالبلاغة القرآنية وآراء ابن خلدون تعد أكثر وفاء وتفصيلا في هذا المقام ، يقول مقارنا بين ازدهار الشعر في المرحلة الجاهلية وبين ما آل اليه امره في صدر السلام.

« ... ثم انصرف العرب عن ذلك أول الاسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي، وما ادهشهم من أسلوب القرآن ونظمه ، فاخرسوا عن ذلك ،وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زمانا ، ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة ، ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره ، وسمعه النبي (ص) وأثاب عليه ، فرجعوا حينئذ الى ديدنهم منه ..»(93)

لذلك لم يجد هذا الباحث بدا من الاعتراف بان ضعف الشعر ليس ناتجا عن موقف الاسلام منه « فجماعة المسلمين الاوائل ان كانت قد انصرفت عن الشعر فلم يكن ذلك لموقف مبدئي تتخذه الدعوة الجديدة ازاء هذا الفن من فنون القول بل

(92) د. محمد فتوح أحمد : الشعر الاموي ... 33 ـ 34 .

(93) مقدمة ابن خلدون : 677

كان خضوعا لمنطق الظروف والملابسات الموقوتة واستجابة لمتطلبات الجهاد وقياما باعباء الفتح ونهوضا برسالة الله الى الافاق ،لقد كان المقام مقام عمل أكثر منه مقام قول » (94).

وهذا يعني أن تلك المرحلة كانت مرحلة انتقال بين عهدين، والشأن في مراحل الانتقال ان تكون رجراجة متحركة بطبيعتها ، لانها مرحلة هدم القديم وتأصيل الجديد ومن ثم فانها تقترن بالعمل أكثر مما تقترن بالقول، وتنصرف فيها الجهود الى احداث التغيير المنشود أكثر مما تنصرف الى التغني بهذا التغيير.

ويضيف الباحث تعليلا آخر يلخصه بقوله:« فاذا اضفنا الى ذلك ما صدرنا به هذا الحديث من نقل مركز الثقل الى الجماعة المسلمة في عمومها وشمولها بدلا من القبيلة في ذاتيتها وخصوصها، كان لنا ـ ترتيبا على هذه المقدمات ـ أن نزعم ان رياح القول قد ركدت في تلك الفترة ركودا جزئيا بركود أحد محاورها الاساسية، ونعني بذلك حمية الاحساس القبلي وما يقترن بها من صراع يهد أطوارا فتكون وسيلته اللسان ، ويشتد اطوارا فيستخدم اللسان والسلاح معا » (95).

ومن قبل، حاول دارس اخر هو البهبيتي ان يفسر هذا الركود الذي أصاب الشعر العربي في الجاهلية المتأخرة وصدر الاسلام فربطه بالدين زاعما ان الشعر أخذ في العهد السابق للاسلام مباشرة يتجه الى نحو من التفكير جار حول العقائد والدين.

« والشعر انما يذهب هذا المذهب في طور شيخوخته ، فارخصه ذلك وحطه عن مستواه القديم » (96) الا ان الجبوري رفض هذا التعليل ورأى انه بعيد عن الواقع بدليل ان شعر زهير ولبيد بقي قويا ،وهذا يعني ـ حسب الجبوري ان ضعف الشعر يرجع الى أسباب خارجة عن امر الدين الجاهلي وأن الشعر بقي في أكثر أحواله بعيدا عن أمور الدين (97)

---

(94) الشعر الاموي 35

(95) نفسه 32 .

(96) تاريخ الشعر العربي 114

(97) الاسلام والشعر 28 . 29 .

وفند الجبوري أوهام الباحثين الذين فسروا هذه الظاهرة بانشغال المسلمين بـأمـور الديـن معتمدين في ذلك على الآية القرآنية ، وعلى اقوال ابن سلام وغيره من رواة الشعر، وأكد أن اجماع الدارسين الذين قالوا بهذه النظرية كان على خطأ وضلال لم تسنده الدلائل، فقال في مقدمة كتابه:

« وقد هالني وأنا أمضي في دراسة هذه الفترة ان الحياة الادبية كانت من الازدهار بمكان وأن الاسلام كان بريئا مما نسب اليه من وقوفه بوجه الشعر والشعراء، بل كان الشعر سلاحا قويا من أسلحة الجهاد شهره الاسلام بوجه خصومه ، وأن الشعراء كانوا في طليعة المجاهدين في سبيل الله بسيوفهم وأشعارهم، وقد كان الصراع بين معسكر المسلمين في المدينة ومعسكر المشركين في مكة ذا أثر في ازدهار الشعر وقيام فن المناقضات الحربية ثم فن الرثاء الذي تثيره الحرب بما يسقط في اتونها من صرعى ثم فن الحماسة ..» (98)

يقر الجبوري بضعف الشعر في هذه الفترة وغياب الشعراء الفحول ويستدل على ركوده بالرواية التي ذكرها ابن سلام وسجل فيها رغبة الحطيئة في ان يقول كعب بـن زهـيـر شعرا يخلد فيه نفسه واسم الحطيئة ، قال الحطيئة لكعب : « قد علمت روايتي شعر اهل البيت (يقصد بيت زهير) وانقطاعي ، وقد ذهب الفحول غيري وغيرك ، فلو قلت شعرا تذكر فيه نفسك وتضعني موضعا ، فان الناس لاشعاركم اروى واليها اسرع فقال كعب :

فمن للقوافي ؟ شأنهـا مـن يحوكهـا اذا ما ثوى كعب وفوزجرول» (99)

وفي كلام الشاعرين ما يدل بالفعل على خلو الفترة من الفحول وذهاب الشعر وهو الشيء الذي اشتكى منه الحطيئة وأكده كعب في بيته بقوله ان الشعر بعد وفاة كعب والحطيئة (جرول) سيسوء حاله ويشين قوله.

---

(98) الاسلام والشعر 11 .

(99) طبقات فحول الشعراء 104/1 .

ويمكن ان يضاف الى هذه الرواية شهادات أخرى منها صمت لبيد وضعف شعر حسان الذي أشار اليه الاصمعي..على ان اقرار الجبوري بوهن الشعر في صدر الاسلام بالقياس الى شعر الفحول مثل امري القيس وزهير ... وكبار الشعراء الآخرين الجاهليين والامويين لايعني ان هذه الفترة كانت منالضعفوالهزال كما يصفها الواصفون ، فتكون عند زعمهم فجوة منقطعة ملأها الصمت والخمول ، بل ان الشعر كان فيها زاهيا ، قويا، كثير الفنون واسع الاغراض، دفعه الاسلام في دعوته ووجهه في ارغاضه وأدخله في أتون المعركة الاسلامية بين مكة والمدينة وشارك في شؤون الحياة الاسلامية كافة فصورها ووصفها ومثلها على قدرما اتيح له وبالشكل الذي يطيقه وان كان لم يبلغ الكمال المنشود والنضوج الذي بلغه في عهد تالٍ هو عهد بني أمية (100) . ثميشير الى خصوصية تلك المرحلة والمتمثلة في كونها مرحلة ثورة وانتقال واثرها على الشعر والفنون الاخرى ، مبينا ان هذه التحولات تخمل الشعر وتدهشه فلا يستطيع تمثيلها الا بعد فترة تقصر أو تطول ، بالاضافة الى ان الشعر يتعرض في مثل هذه الظروف الى الضياع والنحل وهينفسالفكرة التي سبق اليها ابن سلام (101) ويعترف الباحث ان شعرا كثيرا ابيد لما فيه من تعريض بالرسول (ص) والصحابة ولما فيه من اثارة للحزازات بين المسلمين بعد ان وحدهم الايمان.

ثم ان الرسول (ص) نهى عن رواية اشعار بعينها (102) ويورد تحفظا اعتمدت عليه بنت الشاطيء في مقالها المذكور سابقا، وهو ان كتب السيرة والادب وان ذكرت انها اهملت شعرا فيه تعريض بالرسول والصحابة، فانها حفظت شعرا كثيرا لشعراء مكة وشعرا لامية بن ابي الصلت في هجاء المسلمين على الرغم من نهي الرسول (ص) عن رواية ذلك الشعر (103) .

---

(100) نفسه .

(101) العصر الاسلامي 42 ـ 43 .

(102) الاسلام والشعر 33

(103) نفسه 35 ـ 36 .

ويعتبر ما قاله شوقي ضيف في هذا المجال أكثر وضوحا ، فهو يقف على طرفي نقيض مع أولئك الذين اقروا بضعف الشعر ويزعم ان الشعر في هذه الفترة كان مزدهرا لان الشعراء الذين عاشوا تحت جناح الاسلام عاشوا من قبل في الجاهلية ، وكانوا قد انحلت عقدة لسانهم وعبروا بالشعر عن عواطفهم ومشاعرهم ، فلما اتم الله عليهم نعمة الإسلام ظلوا يصطنعونه وينظمونه ، ويدعم وجهة نظره بقوله ان من يطالع كتب الادب والتاريخ مثل (الاغاني) والطبري وسيرة ابن هشام وكتب الصحابة مثل الاصابة والاستيعاب فسيجد الشعر يسيلعلى كل لسان (104) ويستدل كذلك بكتب الشعر العربي القديم مثل المفضليات والاصمعيات وطبقات ابن سلام وكتاب (الشعر والشعراء) لابن قتيبة التي تضمنت قصائد وترجمات كثير من الشعراء المخضرمين

الا لان هذه الاراء لم تكن لتقنعبعض الاخذين بنظرية ركود الشعر، ومنهم محمد فتوح فتصدى للرد على شوقي ضيف معتبرا ان ما اتى به من برهان يحمل في طياته اعترافاضمنيا بضده لان الربط بين المخضرمين وازدهار الشعر يعني ان هذه الحقبة بظروفها التاريخية لم تلد شاعرا عملاقا يمكن التدليل به وبشعره وبعد أن يؤكد ان الدعوة الجديدة لم تحظر الشعر باعتباره فنا رفيعا من الفنون التي ينهض عليها بناء الذوق الاجتماعي، يلتمس أسبابا أخرى ادت الى فتور الشعر وضعفه فيذكر منها علاوة على ماسبق ان قرره من ضعف حدة الصراع القبلي وعناية المسلمين بالجهاد وترسيخ دعائم العقيدة، اهتزاز مستوى الابداع في أثناء التحولات الاجتماعية الكبرى ، فهذه التحولات الكبرى ، مثل ظهور الاسلام ـ تقتضي من الادباء بعض الوقت لكي يدركوا كل اثارها ويعبروا عن هذا الادراك شعرا ونثرا ، ذلك أن أحداث التغيير في داخل المجتمع تكون سريعة عاصفة بحيث تصعب ملاحقتها والابانة عن جزئياتها المختلفة بالاضافة الى ان هذه الاحداث تؤدي بالضرورة الى خلق مناخ جديد يحتاج في فهمه والتكيف معه الى بعض الوقت ، بل والى ما هو اهم من الوقت ونعنيبذلكوعيالادباءبأهدافتلك التحولات

---

(104) نفسه 37 .

الكبرى (105) ، وهذه الفكرة نفسها سبق ان ألمع اليها الجبوري عند ما قارن بين حالتي الشعر في الجاهلية والاسلام ، فقال :«أما في الاسلام فقد حافظ الشعر على مكانته السابقة ،ولم يستطع الشعر ان يجاري حركة الدين الكبرى التى جاءت لتغير ملامح المجتمع وتبطل كثيرا مما تعارف عليه القوم الا بقدر ، وعلى الرغم من ان الاسلام أحدث هزة قوية في نفوس الناس وغير من مثلهم ونظمهموعقائدهم،فان الشعر ظل يجتر ذكريات الجاهلية وينهج نهج الاولين». (106)

إن الجبوري ومحمد فتوح كليهما يلتقيان مع زكي مبارك الذي تساءل عن وضعية الشعر في العصر النبوي واعترف بغزارته وقوته في زمن البعثة ولكنه علل لركوده فيما بـــعد بكون الشريعة الاسلامية قادت حملة شديدة ضد الشعر والشعراء ، مدعيا ان النبي (ص) رأى أكثر هم من معارضيه ، فعمد الى اخفات صوتهم ، وتحسر على مصير الشعر بعد هذه الجملة حيث انقرض وباد ما ترك حزب المعارضة لذلك العهد من الآثار الادبية والفنية وما خلف من الاراء الفلسفية والاجتماعية وأصبحنا لانعرف من الحركة العقلية في ذلك العصر غيرما رواه المسلمون وهم لايروون بالطبع الا ما فيه للاسلام نصر وتأييد ، وصار من المتعذر على الباحث ان يضع لذلك العصر صورة صحيحة مضبوطة لم تلونهـاالاغراض والاهواء-وأقول الاغراض والاهواء – لان القضاء على آثار الحزب المعارض لعهد النبوة انما كان طاعة للاهواء الجامحة التي لم يعرف اصحابها خطر هذه الجناية على تقدير قوة الاسلام من الوجهة الروحية والعقلية والاجتماعية (107)

هذه الافكارالجريئة التي ساقها زكي مبارك أثارت حفيظة بنت الشاطيء فردتها قائلة « ... ومن هنا فقد أخطأ د. زكي مبارك في زعمه اخماد صوت المعارضة اذ ذاك.فكُتب التاريخ تفيض بكثير من هذا الشعر الذي كتبه الشعراء المشركون ضد الاسلام ..» (108)

محمد فتوح + الجبوري + زكي مبارك يحرون بغزارة الشعر في عهد البعثة إلا ان مواجهة الاسلام للطرف الكافر منهم ضعف

(105) الشعر الاموي ..37.

(106) الاحلام والشعر 30 . وانظر : شعر المخضرمين 117 حيث يوضح المؤلف أن شعر حسان وكعب وابن رواحة لم يرفع الى مستوى الحدث الاسلامي ولم يوفق كل التوفيق في ابراز تعاليم الدين..

(107) الموازنة بين الشعراء 28 – 29 – 30 .

(108) مقالها السابق بالاهرام وانظر كذلك مجلة (الشعر) القاهرية عدد 1980/17 ص 18

ب – مناقشة هذه النظرية :

تقوم نظرية ضعف الشعر في صدر الاسلام ، في مفهوم القائلين بها ، على فكرتين اساسيتين هما : موقف الاسلام ، والركود النسبيالذي عرفه الشعر فيهذه الفترة بالقياس الى ازدهاره في المرحلة السابقة فالشعر كان مزدهرا قبل الاسلام بما اتيح للشاعر اذ ذاك من حرية التعبير والتفكير ، فاستطاع الشعر أن يطرق جميع الاغراض ويفتح جميع الابواب ويتغنى بمختلف مظاهر الجمال في الطبيعة والانسان .. لم يحظر عليه القول في شيء من ذلك ولم يحل دونه حائل .

فلما جاء الاسلام خضع الشعر لعدة قيود وأصبح الشاعر ملزما بتمجيد الدعوةالجديدة والسير في ركابها وحين حاولت فئة من الشعراء الخروج عنهذاالسمت الذي اختطه الاسلام وباعدت الطريق الذي رسمه للشعراء، تعرضت للاذى والعقاب من قتل وسجن وتهديد.

والفكرة الاخيرة التي تعتبر احدى دعائم هذه النظرية تنهض علىمبدأ واحد ، هو مبدأ المقارنة بين الشعر الجاهلي والشعر الاسلامي فالشعر الجاهلي في عرف أصحاب هذه النظرية يمثل النموذج الاعلى الذي بلغته الفاعلية الشعرية في تلك المرحلة، ومعنى ضعف الشعر في المرحلة التالية هو انه لم يستطع ان يصل المستوى الذي بلغه من قبل.

والحال أن مبدأ المقارنة غير وارد من وجهة ما ، اذ من غير المستساغ بتاتا مقارنة العطاء الشعري في مرحلتين تاريخيتين تختلفان اختلافا جوهـريا من حيث الطبيعة والخصائص وحتى من حيث المفهوم الشعري لان الشعر اتخذ بالفعل مفهوماً جديدا في ظل الاسلام وخضع لتوجيه جديد أثر في مساره وتطوره ، وكانت له انعكاسات على مستقبله. بل ان المقارنة بين شعراء من مرحلة واحدة امر لايستقيم في ظن بعضالباحثين فزكي مبارك يشير مثلا الى استحالة الموازنة بين شعر حسان وواحد من شعراء اليهود والمشركين ممن عاصروه لان الحوادث عصفت بما ترك شعراء الحزب المغلوب « وبقي شعر حسان بفضل ما صاغ له الرسول من عقود الثناء

، على ان هذا لايمنع ان يكون حسان سيد الشعراء في عصره ، ولكن هات ما ترك اقرانه لنسطيع الموازنة ولنصل بها الى علم اليقين فقلما تنفع الظنون » (109)

ومع ذلك فقد ابى هذا الباحث الا ان يجري مقارنة بين حالتي الشعر العربي في العهدين الجاهلي والاسلامي فتوصل الى استنتاجات منها :

1 ـ ان شعر صدر الاسلام أكثر من حيث غزارة المعنى وتشخصيه من الشعر الجاهلي.

3 ـ الموضوعات في الاسلام أوسع منها في الجاهلية لغلبة الطابع الديني.

3 ـ درجة الشعر في الاسلام دون درجته في الجاهلية لان القرآن زاحمه .

4 ـ الشعر في الاسلام انزه منه في الجاهلية.

5 ـ الشعر في الاسلام أعلى من جهة غزارة المادة .

6 ـ الشعر في الاسلام دون الجاهلية في المتانة .. (110)

وذهب باحث آخر الى الحكم على الشعر الاسلامي من جهة ارتباطه بالعقيدة الجديدة فلاحظ ان الشعر العربي لم يتأثر بالاسلام الا بقدر محدود لتمسك الشعراء بالمثالية الجاهلية في النظم (111) ، ومن الآراء في هذا الموضوع ما قرره البهبيتي والقائل بأن ضعف الشعر بدأ قبيل ظهور الاسلام، وهو ما أكده د.عبدالقادر القط (112) الذي أضاف بأن هناك تداخلا بين المرحلتين الجاهلية والاسلامية فكان من الطبيعي نتيجة لذلك أن تظهر في الشعر الاسلامي بعض الرواسب الجاهلية القديمة وأن يحافظ على بعض مقوماته السابقة وأن تتجلى فيه كذلك مؤثرات الدين الجديد (113) .

---

(109) الموازنة بين الشعراء 33 .

(110) نفسه 419 ـ 420 .

(111) شعر المخضرمين للجبوري ص 1 (المقدمة) وانظر كذلك ص 117 .

(112) في الشعر الاسلامي والاموي 13 .

(113) نفسه 69 ـ 70 .

إن مقارنة الشعر في صدر الاسلام بشعر الجاهلية تستوجب الالمام بوضعية الشعر من حيث التطور والنضج ومن حيث الخصائص والمقومات في المرحلتين المذكورتين، ويكاد هذا الجانب يشكل موضوعا قائم الذات يحتاج الى اطلاع ودراسة متأنية متمعنة لذلك قبل الاسترسال في اثارة هذا الجانب من زاوية علاقته بموضوع هذا البحث، اي باعتباره نتيجة من نتائج موقف الاسلام من الشعر ، لابد من تسجيل الملاحظات الاتية :

أولى هذه الملاحظات هي الاقرار بوجود موقف بل مواقف من الشعر تبناها الاسلام في فترة تكوينه وانتشاره .

فهناك بالفعل موقف او عدة مواقف تحدد رؤية الاسلام الى الشعر والشعراء وتتمثل في آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول وسيرته وفي سلوك الصحابة من خلفاء وغيرهم. وهذا الموقف العام هو جزء من كل . ومظهر من مظاهر الصراع الذي احتد في عهد الرسول خاصة بين المسلمين وكفار قريش لان الاسلام اضطر الى خوض معركة ضارية ضد الوثنية والشرك دفاعا عن نفسه وحفاظا على وجوده وكيانه وهذا الموقف يستمد مقوماته من طبيعة المعركة نفسها ومن ظروفها التاريخية والسياسية والحضارية العامة.

والملاحظة الثانية أن هذا الموقف العام ، الذي وقفه الاسلام حيال الشعر والشعراء لم يكن في جميع الحالات موقفا عدائيا او سلبيا بالنسبة الى الشعر والشعراء ، والاصح ان يقال انه كان موقفا طبيعيا ومنسجما مع ضرورات المعركة ومقتضيات الصراع ، تحكم فيه وعمل على صياغته واقراره فضلا عن مبادئ الكتاب ، منطق الجدل الذي كان بمثابة خط خفي رابط بين الطرفين : المسلمين والمشركين ، ومعنى هذا ان المنطق الجدلي الذي يضبط حركة الصراع السياسي والديني والحضاري العام كان يحدد طبيعة موقف الاسلام ويساهم في بلورته ، والدليل هو انه كلما اعتنق شاعر من شعراء المشركين الاسلام وارتبط بحركة الدعوة أو على الاقل انسلخ عن جاهليته وامتنع عن اعاقة الدين، لقي ترحابا من المسلمين ، واعتبر

من انصار الاسلام فموقف الاسلام كان في الحقيقة مشروطا بموقف الشعر والشعراء من الدعوة والمعاملة التي عامل بها الاسلام الشعروالشعراءوالتي افترض بعض الباحثين انها تمثل موقفا عدوانيا ليست موجهة اذن ضد الشعر مطلقا في كل زمان ومكان ولاضد جميع الشعراء اينما كانوا ومتى كانوا ، وانما اختص بها الاسلام في البداية فئة معينة من الشعراء ونوعا محددا من الشعر الا ان هذا الموقف الذي قررته الآيات «والشعراء يتبعهم الغاوون ..» ليس موقفا جامدا خاصا بفئة بذاتها من الشعراء هم شعراء المشركين واليهود والنصاري في عهد النبي، بل هو موقف مرن ، متطور وجدلي بحيث ينطبق على كل الشعراء الذين يخالفون قيم الدين ويعارضون مبادئه وقوانينه كما أنه يصدق على الشعر الذي يناهض العقيدة ويطعن في أسسها ، ومثل هذا يمكن ان يقال عن الوجه الآخر للموقف . فهذا الموقف العام بصوره الثلاث : الايجابية والمعتدلة والسلبية يطبعه العموم والخصوص ، بمعنى انه عام وخاص في نفس الوقت او بعبارة اخرى ، فهو عام بقدر ما هو خاص وخاص بقدر ما هو عام.

والملاحظة الثالثة هي أن المحافظة على هذا الموقف بوجوهه الثلاثة استمرت طوال العصر النبوي والعصر الراشدي وبكيفية متشددة وصارمة أحيانا كما هو الشأن مثلا في عصر الرسول وخلافة عمر بن الخطاب ، ثم انحلت وانهارت تماما بعدالفتنة الكبرى وعلى الاخص في العصر الاموي بظهور الصراع السياسي من أجل الخلافة وما رافقه من شعر ينافي مبادئ العقيدة مثل شعر الهجاء والغزل الكيدي عند ابي قيس الرقيات وغيره من شعراء الفرق الاسلامية...

وتتعلق الملاحظة الرابعة بأسباب وطبيعة الصراع بين المسلمين وكفار قريش فبالرغم من أن المعركة كانت دينية في الجوهر وذات امتدادات اجتماعية وانعاكاسات فكرية وحضارية فان المعركة الشعرية كانت جزءا أساسيا منها. وبما ان الصراع في المجال التيولوجي / الديني، كان من أجل اقرار مفهوم جديد للالوهية قائم على الوحدانية والايمان برسالة محمد عليه السلام وغيره من الرسل والانبياء

السابقين ... فقد كان كذلك في المجال الادبي والشعري خاصة ،من أجل فرض مفهوم مغاير للشعر يختلف عن المفهوم الذي ساد من قبل ولكنه ليس جديدا كل الجدة لان الاسلامفي موقفه العام من الشعر والشعراء (كما عليه الامر في موقفه العام من الجاهلية برمتها) لم يرفض كل ما خلفه الجاهليون من شعر ولم يحارب كل شعراء ما قبل الاسلام ، بل اتخذ موقفا منطقيا تمليه طبيعة الصراع ، من الشعراء الذين ناوأوا الاسلام وعارضوا انتشار افكاره وسيادة قيمه ومبادئه، كما حمل على الشعر الذي ارتبط بالجاهلية ولم ينخرط في المد الثوري الذي خلقته الاوضاع الاسلامية الجديدة.

وتثبت بعض آيات 'القرآن وكثير من أحاديث الرسول ومواقف الصحابة أن الاسلام حافظ على كثير من الشعر العربي القديم الذي تضمن آراء وأفكارا وصورا أدبية لاتتنافى وقيم الانسان الخلقية ومبادئه الاجتماعية والفكرية السامية ، ومجد شعراء جاهليين ومخضرمين أكبروا الانسان ونافحو عن العدل والاحسان والمساواة والحرية بالمفهوم الصافي البسيط ، (أكاد أقول : الطبيعي) المتعارف عليه في ذلك العهد. (٢٥)

فالتطور الذي طرأ على مفهوم الشعر وغيره من خال الى حال يجعل من المتعذر عقد مقارنة سليمة بين الشعر الجاهلي والاسلامي ويدخّص من ثم النظرية القائلة بضعف الشعر في صدر الاسلام ، اي في عصر النبوة والخلافة الراشدية بسبب موقف الدين والقائمين عليه من الشعر والشعراء.ولنفرض جدلا ان الشعر اصابه وهن في هذه الفترة، أوليس هذا الضعف امتدادا للتدهور الذي عرفه الشعر الجاهلي قبيل الاسلام،؟ثم ان اعتبار الشعر الجاهلي النموذج الاعلى في الشعر أمر مشكوك فيه لعدة أسباب منها أن كثيرا من الباحثين يرون أن هذا الشعر المعروف لدينا الان ليس سوى مرحلة من مراحل التطور التي مر بها الشعر العربي القديم ولا يبعد ان يكون مسبوقا بنماذج شعرية اكثر جودة،عصفت بهاأحداث التاريخ فلم نعرف عنها اي شيء، وكل هذا يدفع الى الاعتقاد بان نظرية ضعف الشعر في صدر الاسلام ان لم

تكن باطلة من الاساس فهي على الاقل نسبية وليست صحيحة على اطلاقها ، مثلها في ذلك مثل المبدأ الذي ترتكز عليه ، اعني موقف الاسلام السلبي من الشعر والشعراء.

فالظاهر الآن أن الآخذين بهذه النظرية سواء من حيث المبدأ أو من حيث النتائج لم يتعمقوا حقيقة الصراع بين المسلمين وكفار قريش في عهد الرسول ولم يدرسوا الموقف الشعري اذ ذاك من كل جوانبه ولم يدققوا جميع جزئياته وتفاصيله ، ولو فعلوا ذلك لادركوا ان المعركة بين الفريقين كانت معركة حياة أو موت بالنسبة لهما معا.

فهي بالنسبة للمسلمين معركة الوجود واثبات الذات، وبالنسبة للمشركين معركة الاستمرار والمحافظة على الحياة والمصالح ، لذلك فالصراع كان شاملا وعنيفا ، بدأ سخرية واستهانة بالدعوة من طرف المشركين ثم تطور بعد ذلك واكتسى طابعا جديا الى ان استحال حربا مسلحة تخللتها معارك أخرى سياسية وأدبية شارك فيها الشعر الى جانب القرآن والحديث مشاركة فعالة وأساسية (٢٦).

إن ضعف الشعر في هذه المرحلة لايمكن ان يعزى الى موقف الاسلام وحده لان الدعوة الجديدة ، كما أوضح كثير من الباحثين (114) لم تحظر الشعر باعتباره فنا رفيعا من الفنون التي ينهض عليها بناء الذوق الاجتماعي ولان ثمة ظروفا حالت دون انطلاقة الشعر وبلوغه المدى الذي ادركه في المرحلة السابقة: الجاهلية، هذا اذاحصل الاتفاق حول « نموذجية » الشعر الجاهلي قبل الاسلام ،ومن هذه العوامل التي اثرت على وضعية الشعر وساهمت في اضعافهوانحساره، خمود العصبية القبلية وضعف حدتها، وانشغال المسلمين بالقتال وبناء الدولة الاسلامية ، والتغيير الحضاري العام : الديني والسياسي والاجتماعي والفكري الذي اتى به الاسلام ، وهو تحول لم يستطع الشعر ـ يستوي في ذلك ما قاله المسلمون منه وما قاله المشركون ـ مواكبته بالقدر الكافي والتعبير عنه تعبيرا جيدا يرتفع به الى مستوى الحدث التاريخي الثوري.

(114) منهم د. محمد فتوح أحمد، في كتابه المذكور : الشعر الاموي 37 .

إن الاستدلال على ضعف الشعر في صدر الاسلام بانحدار قصائد حسان بن ثابت من حيث المستوى الفني، اعتمادا على أقوال بعض النقاد(الاصمعي مثلا)، وبصمت لبيد الذي يزعم بعضهم أنه لم يقل في العهد الاسلامي، وقد عاش فيه حوالي اربعين سنة ، سوى بيت واحد هو :

الحمد لله اذ لم يأتني اجلي ... حتى كساني من الاسلام سربالا

يبدو غير كاف وغير مقنع تماما ، ليس فقط بسبب تغير الحساسية الشعريةوبالخصوص مفهوم الشعر ولكن أيضا بسبب طبيعة تلك المرحلة الانتقالية التي لايجوز أن تتخذ مقياسا للحكم على الشعر ، فهي ، كما ألمعنا تختلف في كثير من مظاهرها عن المرحلة الجاهلية المتأخرة ، وكانت بمثابة جسر ربط بين المرحلة العربية القديمة وعصور الاسلام، احتفظ فيها الشعراء بكثير من خصائص الجاهلية مثل الحطيئة وحسان نفسه فظل بعض شعرهم محكوما بمقاييس الصياغة الجاهلية ، وتجلى هذا الارتباط الفني بالشعر القديم على مستوى التركيب وبناء القصيدة ، وعلى مستوى الموسيقى والصورة الشعرية ، وتأثر هؤلاء الشعراء كذلك بثورة الاسلام وقيمه الدينية الجديدة ، فتمثلوا أسلوب القرآن وتشربوا ما ينضح به من فصاحة وبيان، فيما ارتج على بعضهم الآخر وأفحمه القرآن مثل لبيد ، فأجبل.

وقد تجلى تأثير القرآن واضحا في شعر شعراء الاسلام .

يقولكعب بن مالك ، وهو أحد الشعراء البارزين في عهد النبوة ، يذكر جلاء يهود بني النضير عن المدينة :

نذير صادق أدى كتابا ... وآيات مبينة تنير
فقالوا ما أتيت بأمر صدق ... وأنت بمنكر منا جدير
فقال بلى لقد أديت حقا ... يصدقني به الفهم الخبير

فمن يتبعه يهد لكل رشد ومن يكفر به يجز الكفور
فلما أشربوا غدرا وكفرا وحاد بهم من الحق النفور
أرى الله النبي برأي صدق وكان الله يحكم ولايجور
فأيده وسلطه عليهم وكان نصيره نعم النصير (115)

فالابيات تستمد كثيرا من ألفاظها ومن معانيها من الكتاب الكريم وتستعين بالمصطلح القرآني وبمضمون بعض الآيات فالبيت الرابع اقتباس صريح من قوله تعالى في سورة الكهف « ومن يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا » (116) والبيت الخامس اشارة الى ماذكره القرآن في بني اسرائيل الذين أُشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم ، واتخذوه إلاهامن بعدما جاءتهم البينات (117)

ويستلهم حسان آيات من سورة الاحزاب في شعره حين تحدث عن موقعة الخندق التي أخفق فيها كفار قريش وتراجعوا عن حصار المسلمين ، فقال :

فكفى الاله المومنين قتالهم وأثابهم في الاجر خير ثواب
من بعد ما قنطوا ففرق جمعهم تنزيل نصر مليكنا الوهاب (118)

ومن يقرأ هذين البيتين يلاحظ انهما يترجمان مدلول الاية الكريمة « ورد اللهالذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المومنين القتال وكان الله قويا عزيزا » (119)

(115) الابيات في سيرة ابن هشام 209/3 وفي «دور الشعر في معركة الدعوة الاسلامية» 350.349 ـ والشعر الاموي 40 .
(116) الكهف 17 .
(117) البقرة 92 ـ 93، والنساء 153 .
(118) الابيات في السيرة القسم الثاني 257، وليست في الديوان طبعة صادر..
(119) ـ الاحزاب 25 .

وتبدى هذا التأثر بالقرآن وبأسلوبه البياني في قصائد اخرى لكعب بن مالك وعبد الله بن رواحه وغيرهما من شعراء الاسلام، فقد عكس شعر هؤلاء نمط العلاقة الجديدة التي باتت تربط بين المسلمين بفصل العقيدة الدينية، وهي علاقة قائمة على الشورى والطاعة ،ومبنية على الرضا والاقتناع لذلك فعلاقة المسلمين فيما بينهم وعلاقتهم برسولهم وقائدهم تختلف كلية عن تلك العلاقة التي كانت تربط رئيس القبيلة في الجاهلية بذويه وأبناء عشيرته ، يقول كعب بنوع من الاعتزاز والامتنان :

وفينا رسول الله نتبع أمره اذا قال فينا القول لا نتطلع
تدلى عليه الروح من عند ربه ينزل من جو السماء ويرفع
نشاوره فيما نريد وقصرنا اذا ما اشتهى أنا نطيع ونسمع
وقال رسول الله لما بدوا لنا ذروا عنكم هول المنيات واطمعوا
وكونوا كمن يشرى الحياة تقربا الى ملك يحيا لديه ويرجع
فسرنا اليهم جهرة في رحالهم ضحيا علينا البيض لانتخشع
فجئنا الى موج من البحر وسطه أحابيش منهم حاسر ومقنع (120)

قيلت القصيدة في معركة (أحد) فضمنها الشاعر اشارات كثيرة الى دور الرسول والى ما أصدره من أوامر وتعليمات لكسب الحرب ومنها حث المسلمين على التحلى بالصبروالتشبع بالايمان والتفاني في جهاد المشركين، وفيها كذلك اشارة الى الدعمالذي تعزز به صف المسلمين بنزول الوحي على الرسول (ص) لتوجيه جيش المسلمين والشد من أزره.

وجلى الشعر كذلك التصور الجديد للعلاقات الاجتماعية والدينية الذي ترسخ في الناس بفضل جهاد الرسول والمسلمين، والامثلة على ذلك كثيرة ومتوافرة.

(120) السيرة 140/3 و«دور الشعر في معركة الدعوة الاسلامية..» 311.

وأثر الاسلام في الشعر والشعراء ، اذا كان شاملا ، وخاصة بعد فتح مكة ، فانه لم يكن على مستوى واحد من الرسوخ والعمق لان الشعراء ، ونخص منهم بالذكر الثلاثة المشهورين الذين عاصروا الرسول وعاضدوه، نزعوا في ارتباطهم بالاسلام في عهد البعثة منازع مختلفة وتفاوتوا في استجابتهم للدين ، فبينمااقتصر شاعر هو حسان على دعم الرسول والمسلمين بشعره ولسانه وتخلف عن القتال لجبنه، ابى شعراء آخرون الا الخروج الى الجهاد وحمل السلاح للذب عن العقيدة والعمل على اذاعتها داخل الجزيرة العربية وخارجها (٢٧)

بل إن منالشعراء المسلمين من قاد الحملات واستشهد في المعارك . . وقد جسد عبد الله بن رواحة مثال الشاعر المناضل الذي زاوج بين القول والفعل وضحى في معركة الوجود الاسلامية بشعره وحياته (٢٨) واتفاق شعراء الاسلام الثلاثة في الهدف لم يمنعهم من انتهاج سبل مختلفة الى تحقيقه : فعلى حين كان حسان وكعب يعارضان قريشا وشعراءها بمثل قولهم اي بالوقائع والايام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب، كان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر ، فكان في ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب وأهون القول عليهم قول ابن رواحة ، فلما اسلموا وفقهوا الاسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة (121)

وتبين رواية (الاغاني) هذه وغيرها كثير في مصادر الادب ان ابن رواحة كان أكثر اتكاء على قيم الاسلام وأعمق تمثلا لمبادئه من حسان مثلا ، يؤكد هذا قول ابن سلام فيه :« وكان في الاسلام عظيمالقدر والمكانة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم » (122) .

ويجوز القول بأن مشاركة الشعر الذي التزم بالدعوة في فترة انطلاقها ، كانت قوية وايجابية، لانه واكب جميع المعارك الحربية والغزوات ولم يفتر الا في صلح الحديبية الذي ابرمه الرسول (ص) مع قريش قبل فتح مكة ، فقد نظر الشعر الى

(121) الاغاني 138.137/4 .
(122) طبقات فحول الشعراء 223/1 .

هذه المعاهدة بنوع من التحفظ والتوجس (كان هذا أيضا هو موقف بعض الصحابة من الصلح في البداية وعلى رأسهم عمر بن الخطاب) « ولم يؤد الشعر دوره في هذه المعارك السياسية فدخل قرابه وسكتت ألسنةالشعراء ، ومن ثم لم تجر معاهدة الحديبية على ألسنتهم وتبد في أشعارهم لانهم رأوا فيها هزيمة تفرض الصمت » (123)

وفيما عدا ذلك ظل الشعر حاضرا دوما في الصراع يساند الدين ويجاهر بالرسالة، في غزوة خيبر ، ثم في فتح مكة (رمضان سنة 8 هـ) وبعد ذلك في معركة حنين والطائف.

والمعروف أن فتح مكة بالخصوص أفسح المجال للشعر وعمل على ازدهاره فانطلق الشعراء يتغنون بالنصر ويفخرونبأمجاد المسلمين وبطولاتهم (٢٩) لان الاسلامحققبه انتصارات كثيرة سياسيةوعسكرية وأدبية (٣٠) وهذه الحقائق تقيم الدليل ، ان كان الامر يحتاج الى دليل ـ على أن الشعر لم يفتر زمن البعثة ، وتدحض الرأي القائل بوقوف الاسلام في وجه الشعر والشعراء.

II ـ استنتاجات عامة :

لست ادري ما اذا كانت ثمة علاقة ما بين نظرية الشك في الشعر الجاهلي التي تزعمها مرجليوت وتبناها طه حسين فيما بعد، وبين الرأي الذي يعتبر ظهور الاسلام ضربة موجهة الى الشعر والشعراء.فليس في حوزتي ما يثبت وجود هذه العلاقة او يؤكد أن الرأي الاخير هو مجرد امتداد او ذيل للنظرية السابقة .وفي اعتقادي ان القرينة الوحيدة التي يمكن الركون اليها لتقرير وجود علاقة ما ، وهي صدور النظرية والرأي معا عن مستشرقين، ليست كافية ومقنعة في هذا المجال.

صحيح أن مارجوليوت صدع بنظريته منذ سنة 1925 في مقالته الشهيرة (124) ، وأن غ. ف غربناوم ذكر اكثر من مرة ان ظهورالاسلام كان ذا اثر سلبي على

(123) دور الشعر في معركة الدعوة الاسلامية 402 .
(124) نشرت في كتاب مترجمة بعنوان «أصول الشعر العربي» ومنهم من عربها تحت عنوان : نشأة الشعر العربي .

الشعر (٣١) فردد بعض الباحثين العرب أصداء الرأيين معا. ولكن ليس في هذا كله ما يقيم الحجة على وجود علاقة ما بين ما قاله مارجوليوت ،وبين ما ردده غرنباوم سنة 1944، اللهم الا اذا اعتبرنا انتماء المستشرقين الى ملة غير الاسلام.

ويخيل الي ان الذين طرحوا فكرة ضعف الشعر مستندين الى موقف الاسلام من الشعر والشعراء عربا كانوا أو مستشرقين نظروا الى القضية من زاوية واحدة ، هي / على ما يبدو / زاوية التعصب الديني بالنسبة للمستشرقين ، والنظرة النقدية الفنية بالنسبة الى بعض الدارسين العرب المسلمين.

ومعالجة قضية الاسلام والشعر من وجهة نظر أحادية دينية ، باعتبار العلاقة بين الاسلام والشعر هي في المقام الاول علاقة بين نوع معين من الايديولوجيا (ايديولوجيا دينية) وبين الفن ، ولكن بهدف الطعن في الدين (الاسلام) والانحياز الى جانب الفن (الشعر) أو نقدية تعتمدمعياري الجودة والرداءة او الغزارة والندرة، فيها تجن على الاسلام والشعر معا ،واغفال للعنصر الجوهري في القضية كلها أعني طبيعة الصراع الذي نشب بين الجاهلية والاسلام، بسبب ظهور الاسلام طبعا.

فالقول بأن الاسلام وقف ضد الشعر والشعراء يفترض الفهم بأن الدين لم ينسجم مع الشعر في وقت كان عليه أن يفعل ، اي أن يكون منسجما مع موقف الشعر ، وكأن موقف الشعر هو الاساس وهو الاسلم ، ومن هنا تبدو التهمة الموجة الى الدين (الاسلام) بسبب ما يعتبره بعض الباحثين طعنا في الشعر وحربا عليه ، باطلة من الاساس لان أصحاب هذه التهمة لم يدرسوا القضية في اطارها الصحيح ولم يستوعبواحقيقة التحول الثوري الذي أحدثه الاسلام ، والذي كان من نتائجه ظهور – في خلال الصراع – مفهوم ومضمون جديدين للشعر انعكسا في وظيفة جديدة. فالدعوة الاسلامية في فجر انطلاقتها – فجرت التناقضات بين طرفين كان الصراع بينهما في حالة كمون ، هما الفقراء والعبيد والمستضعفون في ناحية ، والاغنياء المستغلون في ناحية ثانية ، لذلك فمعركة الاسلام الحقيقية كانت ضد قوى

الاستغلال والشرك ولم تكن ضد الشعر بمعناه الادبي الصرف. ومادام الشعراء قد اتخذوا موقفا من الاسلام ان سلبا وان ايجابا ، فعارضه فريق منهم وحال دون انتشاره وانتصاره ،وانحاز اليه فريق آخر فأيده وضحى في سبيله ، فلا أقل من ان يعامل الدين الشعراء على قدر مواقفهم واختياراتهم وهذا ما نفذه الاسلام بالفعل ، فنظر الى الشعر والشعراء نظرة رفيعة وخالدة ، وقضى عليهم قضاء عادلا ، احتكاما الى قيم خلقية واجتماعية ثابته والى مبادئ عليا عامة اقرتها الاديان وتواطأت عليها المعاملات وكرستها النظم وتجارب التاريخ.

ولا نريد ان نقول عن الذين يثيرون قضية الاسلام والشعر إنهم انما يطرحون قضية زائفة طالما ان من يعنيهم الامر ، وهم الشعراء، قالوا كلمتهم ، في وقتها المناسب قبل فتح مكة وبعده ولكننا نكتفي بالقول ان كل القضايا الادبية والفكرية القديمة حرية بأن تدرس في ضوء جديد شريطة ان توضع في اطارها الصحيح وتعالج بشمولية وببعد نظر.